دكتور بهاء الأمير

رد على نقد بخصوص كتاب شفرة سورة الإسراء ٣

النقد

Ragi Alnour

افترض الدكتور أن أي خطاب لفئة ما من البشر في القرآن فهو خطاب مستمر لهم مدى التاريخ وإلا كان القول بتاريخية النص القرآني له وجه، ولكن الأمر ليس هكذا، فالقسمة ليست ثنائية إما هذا أو ذاك.

فمثلاً توجد آيات منسوخ حكمها وبقيت تلاوتها وفيها خطاب لفئة المؤمنين مثل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾، فنسخت بالآية التي بعدها، وأيضاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ﴾، نسخت بالسنة: "**لا هجرة بعد الفتح**".

وتوجد آيات منسوخ مناطها، أي لم يعد قائماً، وفيها خطاب للمؤمنين، مثل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾.

وهذا بخلاف العديد من الآيات التي تتضمن أحكاماً ثم نسخت، إما حكماً، مثل العفو والصفح عن المشركين قبل الإذن بقتالهم، أو مناطاً، مثل حكم المؤلفة قلوبهم، ولكنها لم يستعمل فيها النداء بل جاء الأمر مباشرة، فهل فهم السلف منها أن النص تاريخي أم فهموا أن يحاولوا القياس عليها واستنباط الأحكام منها واستنباط الأحكام للنوازل والمستجدات، وفهموا منها مقاصد الشرع وحكمته، مثل مراعاة أحوال الناس والظروف، فأتى بالتدرج في بعض الأحكام، وفهموا أيضاً أنه من الحكمة في بقائها في المصحف أن يرى الناس نعمة الله عليهم بالتخفيف، ويروا نعمته عليهم من خلال نعمته على القرن

الأول الذي نزلت عليه أحكام منسوخة ومتدرجة ربتهم تربية خاصة بهم ليكونوا أهلاً لحمل عبء الدعوة لكل الأجيال من بعدهم إلى قيام الساعة، وغير ذلك من حكمة الله التي قد يعلمها البعض وتخفى عن آخرين.

افترض الدكتور أن كلام القرآن عن بني اسرائيل في كثير من المواضع دليل على عظم أثرهم في العالم على مدار التاريخ، وأنهم من يصنعون ويحركون الأحداث بطريقة مباشرة عن طريق الزعماء الماسون، أو غير مباشرة بواسطة التأثير على صناع القرار، أو بصناعة الوعي العالمي الذي يحول مسار العالم نحو تنفيذ مخططهم، وافترض أن القول أن ذكرهم هو من باب أخذ العبرة والعظة كأهمية أولى هو قول ضعيف مرجوح، لأنه لا يبرر ذكرهم في كل تلك المواضع، ولكن افتراض الدكتور غير مسلم له به، فقد جاء في الحديث الشريف: "**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر أو ذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**".

فلكي نفهم المراد من ذكرهم يمكن ان نستبدل في مخيلتنا كلمة: أهل الكتاب أو الذين أوتوا الكتاب أو الذين هادوا أو بني اسرائيل بكلمة: "بعض من ينتسب للمسلمين"، لنرى أن ذكر ما جرى لهم هو تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقعوا فيه، ولكن للأسف وقع بعض من ينتسب للمسلمين فيما وقع فيه اليهود بصورة أو بأخرى، وربما بأشد مما فعله اليهود، رغم كثرة التحذيرات، ولم يعتبروا ولم يتعظوا.

فمثلاً نجد أن التحريف وقع، أيضاً من بعض من انتسب للمسلمين من فرق تأولت آيات القرآن على غير وجهها، وأخرى قالت بتحريف بعض آيات القرآن، أو أنه ناقص مثل بعض الروافض.

فمثلاً قالوا إن آية: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ** ﴾ أصلها هو: "**كنتم خير أئمة**"، وأخرى عمدت لإخفاء الأحكام بإخفاء ذكرها، كما أخفى اليهود حكم الرجم رغم ثبوته في كتابهم، وغير ذلك من أصناف التحريف.

ولذلك فإن العبرة والعظة من ذكرهم هام جداً ليحذر المسلمون، وهذا لاينفي أن لليهود دوراً في إفساد عالمي، ولكن دون أخذ العبرة والعظة فلن نستطيع مواجهة إفسادهم ولا إفساد غيرهم.

افترض الدكتور أن كلمة: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعني كل الأرض وليس فقط فلسطين، ثم افترض أن الجوس خلال الديار كان هو جوس الصحابة خلال ديار اليهود في المدينة وإجلاءهم منها، وافترض ان انتفاء علوهم وإفسادهم الأول كان بظهور الاسلام الذي وضع حداً لافسادهم، ولكن بالنظر في سياق الآيات نجد أن الجوس صيغ بصورة تدل على أنه عقوبة على الفساد وليس إصلاحاً له، فلو كان المراد هو نزول الرسالة لإصلاح فسادهم لجاءت كلمة الرسالة أو الإسلام أو مشتقاتها أو كلمة إصلاح أو مشتقاتها أو كلمة النهي عن الفساد، كما جاءت في آيات سورة هود: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ﴾ .....إلى آخر الآيات.

وكما أننا نعلم بالتاريخ أن جوس الصحابة في ديار اليهود بالمدينة وإجلاءهم منها هو عقوبة ليهود مخصوصين منهم لخيانتهم وإصلاح جزئي لفسادهم، وليس له كبير أثر في القضاء على إفساد عالمي حادث منهم وقتئذ، إن افترضنا ذلك، فالجوس خلال الديار ليس إصلاحاً شاملاً، وإذا كانت الرسالة هي الإصلاح الشامل فما هي الأهمية في ذكر إصلاح جزئي تم بالجوس خلال الديار لقبائل ثلاثة مخصوصة بينما بقيت باقي قبائل اليهود في المدينة سوى هؤلاء الثلاثة، فكانت درع النبي صلى الله عليه وسلم مرهونة لدى يهودي، وكان لابن عمر جار يهودي، ولم يتم إجلاؤهم من المدينة ومن الجزيرة إلا في أواخر عهد عمر.

وافترض الدكتور أن ما وقع من اليهود من عبادة أوثان وموبقات مختلفة وقتل للأنبياء في فلسطين ليس بفساد يستحق أن يذكر بخصوصية بينما إفسادهم العالمي ببث نقيض الوحي في الأمم هو الأهم، وهذا الافتراض ليس مسلم به، لأن الله سبحانه عندما ذكر في كتابه العزيز ما استحق به اليهود العقوبات واللعن وما ذموا عليه ذكر في مقدمة ذلك عدة أشياء مجتمعة، وهي نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وهذه جميعاً وقعت منهم مجتمعة في فلسطين فقط، فلم نعلم مثلاً أنهم قتلوا نبياً في غير فلسطين، وعلى هذا فإن افترضنا أن لهم إفساداً عالمياً فإن منبعه ومنشأه كان في فلسطين، فناسب أن تكون العقوبة فيها، فالعقوبة المخصوصة في مكان مخصوص تناسب فساداً مخصوصاً.

وكذلك المرة الثانية صيغت بطريقة تدل على أنها عقوبة لهم، من ذكر إساءة الوجوه ودخول المسجد لتتبير الهيكل الثاني، وكأن ما ذكر في المرة الثانية هو تفصيل لمعنى الجوس خلال الديار المذكور في الأولى، واختص المرة الثانية بذكر دخول المسجد وتدمير الهيكل المبني لأنهم لم يقدروا قيمة الهيكل رمز دولتهم ولم يعرفوا له قيمة، حتى أنهم أدخلوا فيه الأصنام، فرجعوا إلى أنفسهم بعد تدميره على يد بختنصر البابلي، ولذلك كان تدميره في المرة الثانية من قبل طيتس الروماني أشد وطأة عليهم، ولذلك ناسب ذكره هنا.

وأما بخصوص عودة الضمير في: ﴿دَخَلُوهُ﴾ على البابليين أصحاب المرة الأولى وليس الرومان فهذا تحتمله اللغة وقال به أئمة تفسير.

ونلاحظ هنا أن الإفسادتين كانتا من اليهود الإسرائيليين، ولو كانت الإفسادة الثانية من اليهود في الأجيال اللاحقة، والذين ينتمي ٩٠% منهم إلى غير بني اسرائيل، لناسب ذكرهم بلفظ: "يهود" أكثر من ذكرهم بلفظ: "بني اسرائيل".

وأما الإفساد العالمي الحالي، والذي لا نختلف في أن اليهود وراءه، فهو والله أعلم ذو طبيعة دجالية، نسبة الى المسيح الدجال، ويتناسب مع فتنة عالمية، وهي فتنة المسيح الدجال التي تبدو وشيكة، ويمثل هذا الإفساد الحالي إرهاصات لها، واليهود هم مجرد أداة لها وليسوا هم من يتحكم فيها.

وهذا الإفساد العالمي سينكسر إن شاء الله بنزول الخلافة الراشدة الأرض المقدسة ويعم الإسلام الأرض، ثم سيُقضى عليه نهائياً بعد نزول المسيح عليه السلام وقتله للدجال، ودخول المسلمين المسجد الأقصى بعد نزول الخلافة سيكون دخولاً كعاصمة للخلافة ومقر للحكم، حتى أن خليفة المسلمين ومن معه سيحاصر فيه وهو يعد العدة لمقاومة الدجال، كما كان المسجد النبوي مقراً للحكم في عهد النبوة والخلفاء الثلاثة الأوائل، وهذا الدخول يختلف عن دخول عمر بن الخطاب المسجد الأقصى، فقد كان دخوله من ناحية دينية وعسكرية فقط وليس سياسية، فلم يتخذه عاصمة ومقراً للحكم، ولذلك فإن جملة: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا تعني: "كما دخله المسلمون في الفتح العمري له".

وعلى هذا فأرى والله اعلم أن فتنة الدجال التي حُذرنا منها مراراً في الأحاديث بصبغتها العالمية هي التفسير لما نراه من شكل حالي للفساد العالمي الذي نحياه اليوم، والذي بدأ

تشكله بعد فتح القسطنطينية بنظام دجالي يتولاه أتباع الدجال، ثم سيأخذ شكله الفج بخروج الدجال بنفسه بعد فتح روما سلمياً.

وليس معنى هذا أن نتواكل انتظاراً للفرج، بل نكد ونجتهد في نشر الوعي والعمل بالشرع مااستطعنا ونستبشر ونأمل.

هذا والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

الرد

دكتور بهاء الأمير

١

نشكر لك نقدك المهذب وعرضك وجهة نظرك بصورة راقية سواء اختلفنا أو اتفقنا، وقد ذكرت في مواضع عديدة من قبل أني لا أخاطب بما أقوله وأكتبه أشخاصاً ولا أسعى لأن يتبعني أحد أو يسير خلفي، وإنما هو شيء أرادني الله له، وما أصل إليه فيه أخاطب به نفسي أولاً ثم التاريخ والحقيقة، وبعد ذلك لا يفرق عندي أن يقبل أحد ما أقوله أو يرفضه.

وبعض الأفاضل يرسلون إلىَّ روابط لمدونات وصفحات ومواقع تصفني وتصف ما أقوله وأكتبه بالهوس بنظرية المؤامرة وبالبارانويا والجنون، فألقيها تحت قدمي ولا ألقي لها بالاً وكأني لم أرها ولم أقرأها.

والذي اضطرني إلى الدخول في مساجلات على هذه القناة والاشتباك مع التعليقات هو أني نزلت على رغبة القائمين عليها ووافقت على التفاعل مع الأسئلة والإجابة على ما يمكنني الإجابة عليه منها.

٢

كل ما ذكرته في نقدك الرد عليه موجود في كتاب شفرة سورة الإسراء نفسه وفيما سبق من ردود على انتقادات أخرى، ولكن الملاحظة المهمة أنك ومن سبقك في النقد تختزلون آيات سورة الإسراء كلها في: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، فكل من ينتقد لا يرى في الآيات ولا يعنيه منها سوى هؤلاء العباد، ومن أجل ذلك تقتلعون هؤلاء العباد من سياق الآيات وتنزعونهم من نسيجها ثم تنطلقون في كل اتجاه بحثاً عمن يكونون ومتى أتوا وأين كانوا.

فأنت في نقدك، ولكي تصل إلى من يكون هؤلاء العباد، شرَّقت وغرَّبت في التاريخ والجغرافيا، واستعنت بآيات وأحاديث لا علاقة لها بآيات سورة الإسراء ولا ببني إسرائيل، والشيء الوحيد الذي لم تفكر أن توليه عناية لكي تفحصه فحصاً دقيقاً وتحدد ما الذي يتكلم عنه بالضبط هو آيات سورة الإسراء نفسها.

ومن أعجب الأمثلة على ذلك أنك تقول إنني افترضت أن الأرض في قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ هي الأرض كلها بينما المقصود فلسطين، والعجيب هنا أن المسألة مقلوبة، فأنا لم أفترض شيئاً، بل أقول إن الأرض هي كما وردت في الآية بالضبط مطلقة دون تحديد لبقعة ولا بلد، بينما التفسيرات التقليدية التي تتابعها هي التي قيدت هذه الأرض من عند نفسها وافترضت أنها فلسطين دون أي دليل على ذلك، والمسجد الأقصى في الآيات جاء في سياق وصف العباد وليس عند الكلام عن محل الإفساد.

٣

البحث عن هؤلاء العباد ومن يكونون ومتى أتوا أو يأتون يجب أن يكون داخل نسيج الآيات كلها وما تخبر عنه بخصوصهم، وهو:

أ-أنهم أمة واحدة في المرتين، لأن الضمير في قوله تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعود على هؤلاء العباد.

ب-هؤلاء العباد ليسوا فقط هم هم في المرتين، بل هم موجودون بين المرتين وإن علا عليهم بنو إسرائيل، لأن الضمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعود أيضاً على هؤلاء العباد، فالأمة التي يبعثها الله على بني إسرائيل في المرة الأولى موجودة طوال دورة الإفساد الثانية، وهي نفسها التي تسلط عليهم لإنهائها.

وكون العباد أمة واحدة في المرتين وموجودين بينهما يُخرج منهم كل ما قلته وما قاله من سبقوك عن الأمم الوثنية، لأنه لا توجد أمة وثنية واحدة تتطابق سيرتها وعلاقتها ببني إسرائيل مع هذا السياق، والعدول عن كون العباد أمة واحدة في المرتين إلى افتراض أنهما أمتين يخالف نص الآيات وهو تحليق خارجها.

٣

صدر سورة الإسراء هو فعلاً شفرة لغوية مركبة، وعلة كل من توجهوا لتفسيرها أنهم بحثوا عن مفاتيح هذه الشفرة خارجها ولم ينتبهوا إلى أن الله عز وجل وضع مفتاحها داخل السورة، وهو قوله تعالى عن الذين أوتوا العلم من بني إسرائيل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) ﴾.

فقوله تعالى على لسان الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ينسف كل ما شرقت وغربت لكي تحشده، وينقض فرضيتك وفرضية كل من قالوا بأن العباد قوم من عبَّاد الأوثان وفي الماضي السابق على نزول القرآن، لأنها تعني بالنص أن الوعد المفعول الذي وعده الله عز وجل لبني إسرائيل وأخبرهم به في الكتاب الذي أنزله على موسى، ثم أخبرنا به في صدر سورة الإسراء، هو بعثة النبي الخاتم بالرسالة المحفوظة التي يعيد بها عز وجل الوحي للعالم ويكشفه للبشرية.

ونص السورة على أن الوعد المفعول الذي وعده الله لبني إسرائيل في التوراة هو بعثة النبي وإنزال القرآن يعني أن المجال الزماني لإفساد بني إسرائيل في المرة الأولى هو الزمان كله بين إنزال الوحي في الكتاب الذي أنزل على موسى وبين إعادة إنزال الوحي في الكتاب الذي أنزل على النبي الخاتم، وأن المجال المكاني لهذا الإفساد هو الأرض كلها التي بعثر الله فيها بني إسرائيل بين نزول التوراة ونزول القرآن.

والسؤال الآن: هل أصدق النص أم أصدق أوهام من يتركونه ويركبون خيالاتهم محلقين في كل اتجاه خارجه وبعيداً عنه؟

٤

الذي يريد أن يفسر آيات سورة الإسراء وعنده غرام بأن يكون العباد المذكورون فيها من الأمم الوثنية يجب أن يفسر معها صلة هذه الآيات بآية الإسراء التي سبقت آيات الإفساد وصدَّر الله بها السورة، وبذكر الكتاب الذي أنزل على موسى هدى لبني إسرائيل، ولماذا أعقب ذكر مرتي الإفساد وبعث العباد بذكر القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

والقاعدة هي أن التفسير الذي يستطيع نسج الآيات وجعلها وحدة واحدة أصح من ذلك الذي يفككها ويقطع العلائق بينها، ويفسر كل كلمة فيها أو عبارة بمعزل عن باقيها.

٥

الذي يريد تفسير صدر سورة الإسراء عليه قبل أن يشغل نفسه بالعباد ومن يكونون أن يفسر أولاً المقصود بالإفساد في الآيات، لأن الإفساد بالمعنى المادي كالبغي والقتل موجود في طول التاريخ وعرض الدنيا، وإفساد بني إسرائيل بهذا المعنى أهونها شأناً وأقلها أثراً، ولا يستحق حين يقارن بغيره من الإفساد أن يخلد هذا التخليد ولا أن يُنص عليه بمثل هذا النص الذي صُدرت به سورة الإسراء، ولا أن يُنزل في رسالتين على اثنين من أولي العزم من الرسل.

وكذلك العلو الكبير بمعنى الدولة والجيش والسلطة في بقعة من الأرض، فكل ما أقامه بنو إسرائيل من دول في التاريخ كله، بما فيها دولة إسرائيل الحالية، لا يرقى إلى أن يكون مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية أو ولاية في الإمبراطورية البريطانية أو الأمريكية، فكيف ولماذا انفرد بنو إسرائيل بأن يصفهم الله بالعلو الكبير على الدول والإمبراطوريات والبشرية كلها في كتاب نزل ليفسر مسار التاريخ كله ويكشف حقيقته والفاعل فيه؟

٦

تفسير العباد بالأمم الوثنية في الماضي يحول القرآن إلى كتاب تاريخ لا علاقة له بالحياة، ولا علاقة لما يقوله بمسار البشرية، ويخرج أمة الإسلام من الفعل ويحولها من أمة الإصلاح إلى أمة انتظار.

والذي تخبر عنه الآيات وتريده وترشد إليه خلاف ذلك، فالعباد هم النبي وأمته، وهم موجودون بنص الآيات منذ مجيئهم في نهاية مرة الإفساد الأولى وبين المرتين وحتى إنهائهم للمرة الثانية، وهو ما يعني أن كل مسلم من أمة خاتم النبيين في أي عصر هو من هؤلاء العباد، وأنه باتباعه للوحي ومخالفته للهوى ومكافحته للفساد ولو في نفسه يسهم في إبطال آثار إفساد بني إسرائيل

٧

تقول إنه لا خلاف على أنه يوجد إفساد عالمي، وأن خلفه اليهود، فهل المشكلة فقط هي إخراج هذا الإفساد واليهود في هذا الزمان من تفسير آيات سورة الإسراء؟

ثم لكي تخرج هذا الإفساد العالمي من تفسير آيات سورة الإسراء نسبته للدجال وأتباعه، فهل نترك النص الذي ينسب الإفساد لبني إسرائيل صراحة لكي ننسبه لما لا وجود له في الآيات؟!

٨

الدجال غيب، والغيب مصدره الوحيد الوحي، والغيب لا يوصف ولا يُنسب له إلا ما وصفه الوحي به ونسبه له، وكما هو بالضبط دون زيادة ولا افتراضات أو تفريعات، وفي السنة الدجال يوصف بأوصاف تجعله بشراً أو في صورة البشر ولكنه يملك أن يفعل أشياء خارقة للعادة، وليس فيها أنه يضع خططاً أو يدبر تدبيرات ولا أنه يقيم مؤسسات ومنظمات أو يضع مناهج ويؤلف نظريات، والسنة تصف فعله وأثره بأنه فتنة وليس إفساداً.

وأنا رجل معرفة ومعلومات ولا محل في منهجي وما أفعله للأقاويل المرسلة، ولا الكلام الإنشائي والاستدلالات العشوائية، ولا التخمينات التي ليس عليها أدلة خارج رؤوس من يقولون بها، ولا للخلط بين المسائل والأدلة والاستدلال على شيء بدليل على شيء آخر.

وما أسعى إليه هو تحرير القرآن من الدائرة التي حصرته فيها المناهج الإسلامية التقليدية، وهي أنه كتاب ساكن للعظة والغيوب فقط، وإعادته إلى حقيقته وإلى أصله حين نزل والتقى بالبشر والزمن لأول مرة وكما فهمه من تنزل عليهم، وهي أنه كتاب حي في الحياة وصانع لها وفاعل في المعرفة وضابط لها، ويجب فهم كل شيء في الوجود وما يحدث في كل زمن من خلاله.

فهذا هو في الحقيقة الإصلاح الثاني الذي تنتهي به دورة الإفساد الثانية ويكون كل مسلم من أمة خاتم النبيين لبنة فيه، فإذا كان الوعد المفعول الذي أخبر الله بني إسرائيل وأخبرنا من بعدهم أن إنهاء دورة الإفساد الأولى كان به هو إنزال الوحي وكشفه للبشرية في القرآن وتكوين أمة الإصلاح به، فالوعد الذي ينهي دورة الإفساد الثانية هو إعادة الوحي للحياة وصنعها به بعد أن أخرجته دورة إفساد بني إسرائيل منها وعزلته عنها ووضعته على الرفوف وصيرته في أذهان أهله كتاباً للقراءة وللعظة وللبركة وللتاريخ والأحداث المنقطعة ولأي شيء، بعيداً عن فهم الوجود وصناعة الحياة التي هي الغاية الأصلية من إنزاله.

ما أريده أن يكون القرآن ينبوعاً للمعرفة وضابطاً لمجراها، ومصححاً لمسارها وسقفاً أعلى لها، وأن ينتقل في المدارس والجامعات من حصص الدين والخطابة إلى حصص التاريخ والجغرفيا والأحياء والفيزياء.

وهو ما يتبعه ضرورة الانضباط في الفهم والتفسير وعدم طرح أي فرضية تتعلق بالاستنباط منه وبه إلا ببينة وبرهان، وأن يكون ما هو مطروح في الفرضية على قدر ما هو موجود عليها من الدليل، ونبذ الخواطر والطروحات التخيلية والتخمينات.

وأنا حين وضعتُ فرضية بني إسرائيل ونسبتُ الإفساد لهم، فعلتُ ذلك وأنا أتعقب آثارهم ودورهم في التاريخ وأنقب عنهم في طبقات الأحداث لأثبت صحة فرضيتي بالمعلومات والبراهين والتحليل والربط، ولم أنسب لهم فعلاً ولا تدبيراً إلا بعد المجيء بهم وبدورهم فيه تفصيلاً وبالأدلة والمصادر.

أما فرضية الدجال، فهل سيكون منهجنا في حصص التاريخ ومحاضراته أن نضع لافتة موحدة على الحروب والثورات والمناهج الفاسدة والنظريات الضالة والإلحاد والإباحية التي تجتاح العالم تقول عنها جميعاً إنها من صنع الدجال دون أدلة ولا معلومات ولا مصادر ولا أي شيء، وإذا قام طالب ليسأل أو يستفسر عن كيف فعل الدجال هذه الثورة، وبأي وسائل وأين كان يوجد بالضبط في تلك الحرب، وما هي الروابط بينه وبين من تصدروا هاتيك الأحداث أو وضعوا تلكم المناهج والنظريات، وما الدليل على كل ذلك، فبماذا نجيبه؟

وضع يافطة الدجال الذي هو غيب على الإفساد بدلاً من التنقيب عن الفاعل من البشر وفهم صلته بما يحدث لا علاقة له بالعلم، والطريقة التي تستدل بها على ذلك لا يمكن إدخالها في باب المعرفة، إلا أن تتمكن من أن تجد وسائل وتدلنا عليها كيف يمكن تتبع الدجال في الأحداث وإثبات وجوده فيها، وكيف نصل إلى الصلة والرابط بينه وبين من صنعوها، لأن العلم والمعرفة هي ما يقبل النقل للآخرين بأدلته ويقبل كذلك التفنيد والنقد ويصمد له.

فإذا لم تتمكن من ذلك فأقصى ما يمكن أن تصلح له فرضية الدجال المدبر للأحداث والصانع لها هو الخطابة ومجالس الوعظ.

٩

ما جئت به من آيات للدلالة على أن خطاب القرآن لفئة يجوز أن يكون محصوراً في زمنها ومكانها كلها في شأن المؤمنين.

فأولاً: القاعدة أن كل خطاب للنبي وللمؤمنين في زمنه هو خطاب للأمة في كل مكان وزمان إلا ما استثني، وأن الاستثناء يكون لقرينة تدل على الصرف من العموم إلى التخصيص، والذي فعلتَه أنك أهدرت القاعدة وأعملت استثناءها، فأين القرينة على اختصاص الخطاب لبني إسرائيل أو الإخبار عن فعلهم وقولهم بزمن أو مكان بعينه وهو في صيغة المضارعة التي تعني الدوام والاستمرار؟

وثانياً: ما ذكرته من آيات يخاطب المؤمنين في زمن نزول القرآن خاصة في المستوى المباشر والقريب، ولكنه يخاطب المؤمنين عامة في المستوى العميق، فالآيات التي نُسخت تخبر المؤمنين زمن القرآن عن حكم ما، ولكنها هي والتي نسختها تخبر المؤمنين في كل زمن عن كيف كان التشريع، وكيف يكون منهج التدرج في الأحكام وكيف تتنزل على المجتمع البشري، والآيات التي تخبر عن واقعة أو خبر في زمن النزول تعرف المؤمنين في كل عصر بالقدر الضروري من ظروف هذا الزمان وملابساته لفهم كيف يكون التطبيق، ومعرفة سمات النموذج التطبيقي النبوي، وهي كلها غايات حية وينبغي أن تكون حية في كل عصر، وهو ما أشرت إليه أنت في نقدك فكانك نقدت نفسك في هذه المسألة.

ثم ألم تنتبه أنه لا توجد فئة في البشرية كلها خاطبها الله في القرآن، خلاف هذا النموذج التطبيقي للوحي، سوى بني إسرائيل، وألم تنتبه أكثر أن بني إسرائيل انفردوا عن البشرية كلها بل وعن هؤلاء المؤمنين بأن خاطبهم عز وجل باسمهم ونسبهم، وروى من تفاصيل سيرتهم ودقائق تكوينهم وسلوكهم ما لم يروه عن أحد من العالمين لا قبل نزوله ولا بعده؟

دكتور بهاء الأمير

القاهرة

١٨ من ذي الحجة ١٤٣٧هـ/ ١٩ سبتمبر ٢٠١٦م